

خلافة المهدي بالله (255 - 256 هـ)

اسند الأتراك الخلافة الى محمد بن الواثق بن المعتصم الذي لقب بالمهدي بالله اواخر رجب سنة 255 هـ ، و كان محمد انذاك مقيما ببغداد فاحضروه الى سامراء و عرضوا عليه الخلافة، فاشترط ان يسمع بنفسه تنازل المعتز عن الخلافة ، فجيء بالأخير (فخلع نفسه ، وأخبر عن عجزه عن القيام بما اسند اليه ، ورغبته في تسليمها إلى محمد بن الواثق)

ولا شك في أن الخليفة الجديد كان يهدف الى تأكيد أن بيعته موافقة للتقليد السائد دون أن يكون للقادة الأتراك فضل في تنصيبه ، فكانت هذه الخطوة بداية طيبة تدل على احترام هيبة الخلافة وشرعية السلطة .

وقد اظهر المهدي رغبة شديدة في اصلاح الفساد الذي كان يعم مفاصل الدولة ، من مظاهر الأبهة ونهى عن المنكر واطهر العدل مقتديا بسيرة الخليفة الورع عمر بن العزيز وابدى المهدي اهتمام كبيرا بدواوين الدولة فعاقب جماعة من الرؤساء الذين ثبت لديه اهمالهم في اعمالهم ، وجلس للمظالم ورد على الكتب بنفسه ، وقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء .

والواقع ان المهدي قد أدراك عجز الخلافة وضعف مؤسساتها في تمكن تلك الحفنة من القادة الأتراك الذين نصبوا أنفسهم حلقة الاتصال بين الخلفاء ورعيتهم ، مما جعلهم بعيدين عن الناس وعدم ادراكهم لمشاكلهم ، وقد اظهر المهدي براعة ودهاء في محاربة نفوذ الاتراك ، وعلى الرغم من الظروف البالغة الخطورة التي كانت تمر بها الدولة آنذاك ، حيث قام العلويون بالثورة ضد العباسيين في اقاليم المشرق ، كما شهدت هذه المرحلة اندلاع حركة الزنج التي هددت الخلافة العباسية طيلة اربعة عشر عاما ، وخرج على الخلافة احمد بن عيسى وتغلب على دمشق وامتنع عن حمل الاموال الى دار الخلافة ، في نفس الوقت الذي ثار فيه الخوارج في الموصل .

ولكي يعيد المهدي للخلافة قدرتها على التحكم في شؤونها وتصريف امور البلاد بحرية سعى إلى تحطيم قوة القادة العسكريين الاتراك من الداخل عن طريق اثارة بعضهم ضد البعض الاخر ، كما استغل المنافسة القائمة بين الجند الاتراك والفرق الأخرى في الجيش فنجح في التخلص من القائد التركي بابيالك بعد ان احس بتأمره بعد عودته الى سامراء ، وكان اقدام الخليفة على قتل بابيالك هذا بمثابة اعلان الحرب بينه وبين القادة الأتراك الذين التفوا حول قيادة موسى بن بغا ، فاستنفر المهدي العامة و دعاهم للدفاع عن حرمة الخلافة و انقاذها من التعسف الذي يمارسه القادة الأتراك ، وقاد المعركة بنفسه، وعلق

المصحف بعنقه وهو ينادي يا معشر الناس انصروا خليفتم وجرى بين الفريقين قتال عنيف تذاذلت قوات الخليفة بعد أن انضم الجند الأتراك الى اصحابهم، مما اضطر الخليفة الى الاستسلام ،غير انه رفض ان يخلع نفسه فخلعوا اصابع يديه ورجليه من كفيه وقدميه حتى ورمت كفاه وقدماه ، وفعلوا به غير شيء حتى مات ،وعلى الرغم من أن الصراع بين المهدي والقادة الأتراك انتهى بانتصار هؤلاء الا ان صمود الخليفة بوجه النفوذ التركي كان له نتائج ايجابية مهمة، حيث كان المهدي بالله اول خليفة يعلن الحرب ويقف بشجاعة في وجه القادة الأتراك ويعيد للخلافة امجادها الغابرة ، فقد روى الطبري ان المهدي لما بلغه تأمر الأتراك لخلعة (خرج الى مجلسه متقلدا سيفاً، و لبس ثياباً نظيفة وتطيب ، ثم أمر بإدخالهم اليه ، فأبو ذلك ملياً، ثم دخلوا عليه فقال لهم انه قد بلغني ما انتم عليه من امري ولست كمن تقدمني مثل أحمد بن محمد المستعين ولا مثل ابن قبيحة (المعتز) والله ما خرجت اليكم الا وانا متحنط ، وقد اوصيت الى اخي بولدي ، هذا سيفي و الله لأضربن به ما استمسك قائمه بين يدي والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن او ليذهبن بها أكثرهم ، أما دين اما حياء اما راعة كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله).

لقد استطاع المهدي أن يكشف القادة الأتراك امام جندهم الذين أدركوا أنهم لم يكونوا سوى اداة بيد القادة للحصول على الأموال والاستثمار بها لأنفسهم ، اما ارزاقهم فكانوا يأخذونها من خزانة الخليفة التي لم تعد تفي في أغلب الأحيان بحاجاتهم مما حدا بهؤلاء ولأول مرة ان يطالبوا باستعادة الخليفة لنفوذه على كافة شؤون الدولة ، وهكذا فان موقف المهدي أسهم في استعادة الخلافة لبعض سلطانها وهيبتها فكانت بداية النهاية لنفوذ الأتراك..